رواية وتدوين الشعر الجاهلي:

لقد حافظ العرب على شعرهم فقد كان وسيلة من وسائل حفظ تاريخهم وحروبهم وأيامهم، كما كان وسيلة لنشر أمجاد القبائل العربية على حفظ شعر شعرائها وتداوله بين أبنائها إذ كان ديوانه الذي جمع كل تراثها ومصارفها وعلومها وتاريخها .

لم يعرفِ الشعر الجاهلِيُّ التدويْنَ إلاَّ بعد عهدٍ من الزمنِ، فقد تداولُوهُ وتناقلوه عبْر الروايةِ، وهم قد عرفوا الكتابةَ كما تفيدُ الأدلةُ، ولكنَّهم لَمْ يستخدموها لتخليد الشعر الجاهلِيّ، بل الرواية والحفظ الوسيلة الأولَى لتداولِهِ، فيلقي الشاعر قصيدته أمامَ الناسِ ويروونَها.

وقد تضاربت الآراء حول كتابة المعلقات وتعليقها على الكعبة؛ فياقوت الحموي ينفي ذلك بقوله: "ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة"؛ فالكتابة محدودة في العصر الجاهلي وليست شائعة وإنما يعتمد العرب في حفظ أشعارهم وتَدَاولها على الرواة، والشعر الجيد يفرض نفسه على الرواة فيتناقلونه ويحفظونه، والدليل على ذلك قول المسَيَّب ابن علس:

فَلأْيُ هْدِيَنَّ مَعَ الرِّيَاحِ قَصِيدَةً***مِنِّي مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقَاعِ

تَرِدُ المِيَاهَ فَمَا تَزَالُ غَرِيْبَةً***في القَوْمِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وسَمَاعِ

ومنذ أن عرف الشعر الجاهلي وله رواة ينقلونه إلى من بعدهم؛ فالأعشى يروي شعر المسيب بن علس، وطرفة يروي أشعار المتلمس.

وقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرًا يروي عنه شعره، وما يزال يروي له ولغيره حتى ينفتق لسانه ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن.

الرواية الشفهية

وظلتِ الروايةُ الشفهيةُ له وللقرآن الكريْمِ والحديث الشريف أزمنةً متتاليةً في الإسلام، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت وغيره.

وهذا يعنِي وجود طبقةٍ تَحتَرفُ رواية الشعر، يذكر الأصفهانِي في (الأغانِي) سلسلةً من هؤلاء الشعراء الرُّواة، بدأها (أوس بن حجرٍ) وأخذ الشعر عنه (زُهيْر بن أبِي سُلمى) ثُمَّ ابنه (كعب بنُ زهيْر) و(الحطيئة) يرويان شعره، وعنِ (الحطيئة) أخذ (هُدبةُ بنُ خُشرم) العذري،

وعنه أخذ (جَمِيْل بُثَيْنة) وعنه أخذ (كُثيِّر عزَّة)، كما كانَ شعراء القبيلة الواحدة يروون شعر أسلافِهم.

لقد كان الرابط الذي يجمع بين هؤلاء الرواة اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة نتيجة تمسكهم بنماذج أسلافهم، وهمّ كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أساتذته وشعراء قبيلته. ودليل ذلك كله اتفاق العرب على تراكيب وصيغ فنيَّة شعرية واحدة كالوقوف على الأطلال والوصف والمدح وغيْر ذلك.

رواة الشعر

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية الشعر، فقد كان يشاركهم في هذا الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم؛ لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم، كما يسجل مثالب أعدائهم.

وفي العصر الأمويّ يستمرُّ حفظ الشعر الجاهلِيّ، فقد كانت عربية النزعة وعملت على حفظ هذا التراث، فمعاوية بن أبِي سفيان وغيْره من خلفاء بنِي أُميَّة كانوا يسألونَ من يفدُ إليهم من القبائل العربيَّةِ عن بعض شعرائِها، ويقدمون الجوائزَ لمن يُلقي عليهم أشعار العرب، ودخلت الرواية في جلسات السمر في قصر معاويةَ، والذي أمر غلمانه بتدوين الشعر.

وفي العصر العباسيّ يتطوَّرُ الأمر إلى الرواةِ المحترَفيْنَ عرباً وغيْر عربٍ، اتخذوا رواية الشعر الجاهلي عملاً أساساً لهم، ولم يكتفوا برواية الشعر بل أوردوا أخبار العرب في الجاهلية، واتَّخذوا لأنفسهم حلقاتٍ في المسجد يُحاضرونَ فيها الطلابَ ويشرحونَ الألفاظ الغريبةَ وظروف النَّصِّ التاريْخيةِ، ومنهم (حَمَّاد الرواية) و(خَلَف الأحْمر) و(الْمُفضَّل الضَّبِّيّ)، وكانت مصادر روايتهم من القبائل والأعراب، وبعضهم يرحل إلَى الصحراء ليستقي الشعر الجاهليَّ من هناك.

ومن أسباب العناية برواية الشعر الجاهلي في العصر العباسيّ تفسيْر القرآن الكريْم والاستشهاد بالشعر الجاهليّ لشرح ألفاظه، ووضع القواعد والاعتماد عليه، حيثُ برزتْ مدرستانِ (مدرسة الكوفة) و(مدرسة البصرة)، وتقدمتْ مدرسة البصرة في الرواية لكون رأس رواتِها هو (أبو عمرو بن العلاء) المعروف بدقتهِ وأمانتهِ وهو مؤسس المدرسة وأحد القرَّاء السبعة، في حيْن رأس مدرسة الكوفة (حَمَّاد الرواية) ولم يكن ثقةً ومعروفاً بالوضعِ.

الآراء حول تدوين الشعر

وقد انقسم العلماء في مسألة تدوين الشعر الجاهلي إلى قسمين:

الأول: ينفي استخدام الكتابة في كتابة الشعر الجاهلي، فعملية التدوين لم تتم له في العصر الجاهلي، وكل ما كتب من شعر إنما هو من عمل كتاب القرن الثاني للهجرة، وإنّ كل ما كتب من قبل فهو لا يتجاوز بعض القصائد أو المقطوعات.

والثاني: ينادي إلى أنه دوّن ورتب، وحجم المادة التي كتبت كبير يأتي على معظم الشعر الجاهلي، والرواة إنما حصلوا على هذه المدونات، وعملوا على انتخابها ةتنقيحها فكانت لهم الشهرة اولنسبة في رواية الشعر الجاهلي.

والأرجح أن يكون ما كتب هو اجتهادات فردية حتى إذا تخصص بعض الرواة بدور الرواية طافوا يبحثون عن هذه المدونات ويجمعونها، ولا ينفي ذلك أن يكون الرواة قد حصلوا على بعض القصائد من أفواه الحافظين لها، غير أن مسألة الكتابة والتدوين، وحجم الشعر الجاهلي الذي توفر للدارسين يفرض أن تكون قصائده قد دونت، فخشية عمر بن الخطاب على ضياع القرآن الكريم بسبب موت حفاظه قد دعت إلى جمعه وتدوينه، ومن نفس الباب يمكن أن يقال بأن بقاء الشعر الجاهلي بتجاوز أكثر من مئة عامٍ يفرض أن يكون أصحابه ومن اهتم به، قد حفظه في صحاف ومدونات، خشية أن يضيع.